السراب

قصة مترجمة من الأردية لـ: شهناز إسلام

ترجمة: د. سمير عبدالحميد - اليابان

منذ أول يوم خرجت فيه وردة من بيتها إلى العالم الخارجي، لتلحق بالعمل في المكتب، لاحقتها كثير من النظرات الجائعة، وفي اليوم التالي حين جلست أمام الآلة الكاتبة، لاحظت أن رئيس الموظفين وجميع العاملين بالقسم، قد جلسوا في غاية الأدب والكمال.

في المسابقة التي أجريت بالأمس، كانت ترتدي ملابس نظيفة، فيها سمات الاستعراض، والتباهي أيضا، وكان انضمامها إلى مجموعة العاملين بالمكتب بمثابة نسمة معطرة، قادمة من حديقة مملوءة بالورود، هبت من خلال نافذة مشرعة.

كان كل إنسان يحاول أن يتمتع برحيقها من على البعد، ويستمتع بلطافتها ورقتها، رغم أنها كانت تمضي في عملها على وتيرة واحدة: تؤدي عملها، وفي وقت فراغها كانت تشغل نفسها بحل الكلمات المتقاطعة.. وعندما يحين موعد الخروج تحمل المظلة وحافظة الطعام، وتنسحب من المكتب في صمت، وإذا حاول أحد الموظفين الاقتراب منها، لم تكن تبدي تجاهه أي نظرة عدائية، كما لم تكن تعنفه بشكل أو بآخر، فلم تكن ترى في التحية الرسمية، أو السلام العادي بين الزملاء أي حرج.

وكانت تعرف قدر الموظفين الأشقياء، فإذا حاول بعضهم التمسح بها، أو إظهار تواضع من نوع ما، واجهته برفع حاجبيها بحركة خفيفة لها مغزى واضح... ثم تظل منهمكة في تحريك إبرتها التي تغزل بها الصوف أحيانا، وهي تصدر آهة من الأعماق.

لم يكن هذا القبول المتزايد على خطب ودها، إلا عاملا نفسيا، يمنحها القوة، وبالتدريج بدأ إعجابها بنفسها

يحيط بوجودها حتى غرقت في كأس الغرور، فلم تكن تنعم على أحد بغير الابتسامة الرقيقة، فصارت بطبيعتها، تهرب سريعا من أي حديث أو جلبة أو ضوضاء..

كانت تعيش في البيت مع زوجتي أخويها، وأطفالهم الذين يتحركون في كل مكان مثل الدود، والذين أفسدوا عليها كل شيء، وجعلوا عيشتها مرة... ميمو وفيصل يبكيان على الدوام، وكأنهما في حفل موسيقي ينشدان معا حينا، أو يرد أحدهما على الآخر حينا، أما كلو و أشرف فقد جعلا كل ركن من أركان البيت ملعب كرة، يضربان كرة التنس هنا وهناك، ناهيك عن سنبل و ناهد فتظلان تطلبان منها استعمال عطرها الغالي، وكريم يدها.

ذات يوم عادت وردة من المكتب، فرأت زجاجة الكولونيا المعطرة التي تستخدمها يوميا لتعطير جسمها، مفتوحة، فثارت ثائرتها:

- يا زوجة أخي! هل رأيت ما حدث؟ هل رأيت ماذا أصاب زجاجة عطري على يد سنبل الشقية، ولو تجرأت مرة أخرى، وخطت خطوة واحدة داخل غرفتي، في غيابي، فسوف أعلمها الأدب فعلا.. تفضلي هاهي الزجاجة فارغة.. مبارك عليك!!

فرفعت زوجة الأخ صوتها حتى تسمع سنبل ما تقول:

- هذه الشقية.. الله يأخذها.. منعتها ألف مرة ألا تلعب في أشياء لا تخصها.. لكنها لا تسمع كلامي!!

- يا زوجة أخي! لا تؤاخذيني.. لكن هذه العيشة لا يمكن أن تستقيم بهذا الشكل.. لو كان هذا سلوك الأطفال في جميع أنحاء الدنيا، فليسامح الله مثل هؤلاء الأطفال.. وعلى الدنيا السلام. ثم مطّت شفتيها، كأنها تغلق باب الحديث مع زوجة أخيها التي ردت عليها بكلمات، تحمل معاني خفية وهي تهز رأسها قائلة:

- أنت الآن وحيدة، لهذا تنتقدين تصرفات الأطفال مهما كانت، لكن كل هذا سينتهي حين تدخلين (بيت العدل) يا أختي، ويمتلئ بيتك بالأطفال الذين سينزلون عليك نزول المطر.. عندئذ سنسألك عن حال روضتك!!

ألقت وردة بأوراق اللعب هنا وهناك، تبعثرها، دون إظهار أي نوع من الخجل أو الحياء وهي تقول:

- لست من القائلين بزيادة أعداد الشيالين والحمالين في هذا العالم!

وكانت عادة تلقي بأوراق الكوتشينة هنا وهناك في مثل حالة الاضطراب تلك، بينما زوجتا أخويها تلزمان الصمت، وهما مضطربتان.. وحين يغني المذياع أغنية حسين ومحمد، أو أغنية طفلان يكفيان .. إلخ. تجلس وردة بجوار زوجة أخيها، تدلك لها قدميها وهي تقول:

- اسمعي

فتضحك زوجة أخيها ثم تقول:

- وردة ! ارضي بنصيبك.. وتزوجي كما يتزوج البسطاء، وسوف نراك بعد الزواج.. كيف ستتوقفين عن إنجاب الأطفال؟

■ ■ ■

كان جنيد يعد من أكثر موظفي شركة الإعلانات هذه من حيث الكفاءة والنشاط، وقد حقق خلال السنوات الخمس الماضية مكانة مرموقة ومركزا متقدما في إدارة الشركة، بشخصيته الجذابة، ونشاطه المتواصل، وعزيمته التي لا تعرف الملل، والآن يتقلد منصب مدير فرع الشركة في لاهور، كانت وردة محل اهتمامه، فقد كان يرى فيها الفتاة الذكية المجتهدة، التي يمكن أن يثق بها، ويعتمد عليها.. ظل الاثنان لفترة طويلة يحيطان شخصيتهما بسياج حديدي، حتى صارا كالغرباء، كل منهما يؤدي عمله في صمت، ولا تتعدى علاقتهما

حدود العمل.

في الحقيقة كان جنيد طوال هذه المدة يختبر وردة ، ويحاول أن يقيّم شخصيتها، فهو من واقع تجربته يرى أن النساء اللاتي يقضين معظم وقتهن في مكاتب الرجال ومجالسهن يفقدن سريعا أنوثتهن، ويعتبرن المرأة التي تفضل حياة البيت ورعاية الأسرة أسوأ من الدجاج، كما أنهن ينفرن حتى من حضور حفلات الزواج، ولهذا فمثلهن لا يمكن أن يصبحن زوجات طيبات.

لكن خلال السنوات الأربع التي مضت، كانت وردة تتجنب أحاديث المكاتب، والاختلاط الذي لا لزوم له، وهكذا لم تسمح للصدأ أن يتكون على جاذبية أنوثتها، فكانت في معظم أوقات فراغها تنشغل بغزل (بلوفر) أو (سويتر) لابن أخيها أو ابنة أخيها.

كان جنيد يشاهدها في هذا الوضع، فيضطرب قلبه، كان يحاول أن يتطلع من مكتبه إلى الغرفة التي تجلس فيه وردة، وكانت السعادة تغمره إذا ما كانت النافذة مفتوحة على مصراعيها.. وحينما كانت وردة تمسك بالمشط، تسوي شعرها، كان قلبه يموج بمشاعر غريبة، وهو الذي رأى الكثير من الفتيات الأوربيات، لأن طبيعة عمله كانت تفرض عليه السفر كثيرا إلى بلدان أوروبا، لكن نساء أوروبا لم يعجبنه أبدا.. كم من ذوات العيون الزرق تتبعنه، وحاولن النيل منه، لكنه كان واضحا وصريحا، فنجا من شباكهن.

كان الوقت صيفا. في شهر يونيو، وكانوا مشغولين في إغلاق حسابات المكتب، لم يكن يشعر بمرور الوقت، فقد كان يراجع الميزانية بأرقامها الممتدة على طول صفحات الدفاتر المكومة أمامه، كما كان يراجع التقارير المتعلقة بحسابات الميزانية.. وفجأة دخل أحد المحاسبين الغرفة..

- سيدي دقت الساعة السادسة.. لن أستطيع اللحاق بالحافلة.. فتأوه جنيد وقفز من مقعده قائلا:

- يمكن أن تذهب !

نطق بهذه العبارة وهو يمسح زجاج نظارته. وبعد خروج المحاسب قال لوردة:

آسف يا وردة ! ! لم أنتبه. لقد تأخرت كثيرا، لقد حل الظلام.. سوف أوصلك بنفسي..

- لا عليك يا سيدي !

ردت عليه وردة بلهجة كلها دلال.. فانصرف جنيد إلى عمله ثانية. بعد قليل حين دق الجرس، يطلب من العامل أن يحضر من المطعم الموجود في أسفل المبنى بعض السندوتشات، أخبره العامل أن السماء تمطر. كان المطر هو نقطة الضعف عند جنيد. كان منذ طفولته يعشق الفسحة في أثناء هطول الأمطار، وكان يتمتع بذلك كثيرا. في ذلك الوقت أيضا قفز من على الكرسي وهو يقول فرحا:

- هيا يا آنسة وردة سوف أجعلك تتفرجين على بلاد الله وسط هطول المطر. قال هذا وهو يرفع معطفه المعلق على الشماعة، ثم يرتديه بسرعة، ويلملم الأوراق ويغلق الأبواب، ويخرج في معية وردة من المكتب، ووصل إلى أسفل المبنى بعد أن نزل على السلم الضيق الطويل، واندفع يجري ناحية السيارة كطفل في العاشرة من عمره، فتح الباب وشغل المحرك وتقدم بالسيارة حتى باب المبنى، بجوار الرصيف، حيث كانت وردة في انتظاره، أعاد تحريك السيارة حتى تتمكن وردة من أن تركب في الكرسي المجاور له، ثم فتح الباب يقول:

- هيا.. تعالي يا وردة.. أسرعي!

وفي لمح البصر، كان يقود سيارته، متجها إلى شارع المال في وسط لاهور. كانت السماء الملبدة بالغيوم تمطر بغزارة، وهكذا تجمع المارة عند مداخل المحلات، والطرق المؤدية لها، هروبا من ماء المطر، أوقف جنيد سيارته عند دكان مولا بخش بنواري وقال:

- اثنين (بان) أي ورقتي تنبول

تمضغ في الفم بعد إضافة بعض التوابل إليها. فنهض الرجل الذي يعد أوراق التنبول وقال بلهجة خشنة:

- يا سيد اثنين إيه ! قل عشرة.. كله جاهز، لكن كيف يمكنني أن أعبر هذا النهر؟! تكون نهر صغير بين الدكان وبين الشارع، فقال جنيد مازحا:

- يا باشا. أنت يا باشا ! خض في الماء، وغمص برجليك وتعال، فهذا ربيع موسم المطر.. وضع ورقة التنبول في فمه وأخذ يمضغها بلذة، وعرج تجاه فندق هيلتون ، حيث أخذ بعض السندوتشات والقهوة، وأخذ يدندن كأنه يحلق في عالم من الفرح والسعادة.. استحمي أيتها الفتاة فالسماء تمطر وظل يردد مطلع الأغنية كأنه في حال وجد، وبعد فترة طويلة وقعت عيناه على وردة فغطت حمرة الخجل وجهه فجأة، حتى صار لونه مثل لون الورد البلدي..

- أوه ! آسف لم أنتبه أن بجواري جنسا لطيفا ! ثم ابتسم وقال:

- هل سبق لك الاستحمام تحت مياه المطر؟! فسحبت وردة طرحتها لتغطي بها جزءا من وجهها خجلا وهي تقول:

- لا.. لم يحدث هذا أبدا.. فرد عليها بشكل عفوي قائلا:

- يا لك من فتاة ظالمة ! مرة واحدة جربي ذلك.. ستشعرين بسعادة غامرة، كم مرة ذهبت في طفولتي عند النهر لأسبح فيه عند سقوط المطر.

بعد ذلك اليوم، صار من عادة جنيد أن يصطحب وردة في سيارته إلى بيتها، ومع مرور الأيام تعرف على أهل بيتها، وبسرعة تركت وردة العمل في المكتب لأن زوجها المحترم جنيد لم يكن ليقبل أن تعمل زوجته ضاربة آلة كاتبة.

أقامت وردة مع جنيد في فيلا جميلة في أرقى أحياء المدينة، كانت وردة تعيش حياة هادئة مطمئنة، وكان كل اهتمامها منصبا على ترتيب البيت وزينته، فكانت تقضي معظم يومها في ترتيب كل ركن فيه، وتزيينه بشتى الطرق، ستائر فخمة من كل نوع، سجاجيد عجمية نادرة، وتحف وأدوات زينة لا حصر لها... في بيتها هذا كان بعض أفراد أسرتها يجتمعون لديها، لكنها كانت في كل مناسبة تشعر بالقلق الشديد، فكانت دائما تضع عينيها على مومو وفيصل وسنبل وناهد وكانت دائما تحذرهم:

- انتبهوا... هنا... ناحية الشمال... لا تلمسوا المزهريات، لقد أحضرها جنيد من باريس، انتبهي يا ناهد، نظفي حذاءك جيدا قبل أن تمشي على السجاجيد.. وهكذا عاشت أيامها على أكتاف الرياح، في سعادة غامرة، وهناء، وطمأنينة.

وفجأة بدأت تذبل، وتتغير، وحين ابتسم لها الطبيب، وهو يخبرها بأنها حامل، عقدت وجهها وزمت شفتيها قائلة:

- يا إلهي ! هل سأعاني من هذه الحياة الشاقة مثل زوجتي أخوي.. هكذا فكرت، وتملكها مثل هذا التفكير على الدوام، حتى صار أمرا مؤلما لها، فقالت لجنيد:

- لا أريد أن أربك نفسي سريعا

بإنجاب الأطفال وتربيتهم.. وكان جنيد يسمع منها هذا الكلام، فتعصره الآلام، ويحاول أن يفهمها:

- اسمعي يا وردة ! لا يجوز أن نتدخل فيما يقدره الله لنا.. ثم إن الأطفال رحمة من عند الله. لكن مسألة تنظيم الأسرة كانت تطغى تماما على ذهن وردة ، وفي النهاية قامت بإسقاط جنينيها في عيادة خاصة بإحدى الطبيبات !

طبقا لحساباتها كانت تعيش حياة سعيدة، وكانت تشعر بأن الحياة سهلة بالنسبة لها وهي تعيش وحيدة، لكن بعد مرور خمس سنوات، بدأت تعاني من نوبات قلق، وضغط، فاستشارت أكبر الأطباء وأمهرهم، فقالوا لها: إن يد طبيبة غير ماهرة، عديمة الخبرة، ظالمة، قد أصابت المنطقة الحساسة في جسمها بالعطب، وعليه فيجب ألا تأمل مطلقا في إنجاب أطفال... ثم أخذها جنيد إلى أمريكا، وبعد إجراء فحوصات عديدة، أعطاها الأطباء هناك تقريرا مطابقا للتقرير الذي استلمه من أطباء وطنه.

عادت وردة من أمريكا، وذهبت إلى بيت أهلها حتى تقضي عدة أيام، تحاول فيها أن تنسى آلامها وحزنها، وفي المساء حين يرتدي الأطفال ملابسهم الملونة، ويجرون هنا وهناك كالفراشات، تظل تتطلع إليهم في حسرة.

ذات يوم كانت تجلس على الأريكة حين بدأ فيصل ومومو الملاكمة، وفجأة سقطت مزهرية غالية من على الطاولة، نتيجة اندفاعهما معا، فتهشمت المزهرية الغالية، فجرت زوجة أخيها، وأمسكت بفيصل، وبدأت تضربه، فاندفعت وردة، لتخلص فيصلا من قبضة أمه، وضمته إلى صدرها وقالت:

- يا زوجة أخي ! ماذا بك؟ ماذا تساوي هذه المزهرية مقابل طفل، لا يوجد هناك ما هو أغلى، أو أثمن من طفل !!

قالت هذه العبارة وانخرطت في البكاء، بينما ظلت زوجة أخيها تنظر إليها في دهشة واستغراب، ثم قالت لها:

- وردة!! كنت تريدين دائما البقاء بعيدا عن الأطفال وهوسهم.. أين ما يسمونه تنظيم الأسرة ؟!

فقالت وردة:

- آه ! لا شيء.. كان هذا سرابا يا زوجة أخي.. مجرد خداع.. ■